

الفصل العاشر

بنو أمية ٩٦ - ١٠٥ هـ

(٧١٥ - ٧٢٤ م)

خليفة سليمان - موسى وطارق - وفاة عبد العزيز بن موسى -
الحصومات القبلية - اليمانيون - ثورة يزيد بن المهلب - حصار
القسطنطينية - كارثة السلمين - وفاة سنيان - استخلاف عمر
الثاني - حكمه - انسحاب الجيش من القسطنطينية - وفاة عمر -
استخلاف يزيد الثاني - ثورة يزيد بن المهلب - هلاك اليمانيين -
الحصومات القبلية - الكوارث التي حلت بالإمبراطورية - وفاة
يزيد الثاني - العباسيون

بويح سليمان بالخلافة بمقتضى وصية أبيه عبد الملك . وكان كريم الخصال
محباً للهو ، يؤثر العدل ، ويأخذ بنصائح ابن عمه عمر بن عبد العزيز - الذي
ولى الخلافة من بعده - فبادر فور مبايعته بالخلافة إلى فتح أبواب السجون في
العراق ، كما أطلق سراح الأتوف الذين كان الحجاج قد زجهم في غياهم ظلاماً
وعدواناً ، وعزل جباة ذلك الطاغية ، وألغى معظم أحكامه الصارمة .

ولو اكتفى « سليمان » بإنقاذ الناس من عسف الحجاج فحسب ، لذهب
محمود الأثر في التاريخ ، غير أنه سمح لعاطفة الانتقام أن تسيطر على مشاعره ،
فطلق يضطهد المضربين الذين ناصروا الوليد في تغيير وصيته ، كما رفع من شأن
اليمانيين الذين أخذوا يثارون لسوء المعاملة التي عوملوا بها في زمن الحجاج . أما
يزيد بن المهلب فيقال إنه بعد أن طوى الموت عدوه اللدود راح يضطهد أقاربه
وأصحابه بمرأى ومسمع من الخليفة ، وفي تلك الأثناء لاقى « قتيبة » حتفه في
خراسان في الثورة الداخلية التي استمرت بين المضربين واليمانيين في أنحاء
الإمبراطورية .

موسى بن نصير
وطارق بن زياد

لا نستطيع في هذا العصر المتأخر أن نعلم سبب المعاملة التي عومل بها القائدان المشهوران « موسى بن نصير » و « طارق بن زياد » ، إذ أن كليهما من أصل يمني ، فضلا عن أنهما كانا متممين برضاء « يزيد » قبل وفاته ، ولكن « سليمان » أساء معاملتهما فقضيا نحبهما فقيرين معدمين ، وهو عمل أقل ما يقال فيه إنه سبقتي أجد الدهر عاراً ووصمة في جبين خليفة ذلك العهد . وتحدثنا الرواية العربية أن « سليمان » كان عارفا بالمؤامرة التي دبرت لقتل « عبد العزيز بن موسى »^(١) الذي نجح في حكمه إلى حد بعيد ، كما أنه هو الذي استدعى إلى الشام « محمد بن القاسم »^(٢) فاتح السند والبنجاب ، بعد أن فاز بمحبة الهنود لعدله وإنصافه ؛ والغريب أنه ليس ثمة ما يؤاخذ عليه هذا القائد العظيم سوى قرابته للحجاج ، فمن أجل هذه الصلة وحدها سامه « يزيد بن المهلب » أروع صنوف العذاب ، وعين مكانه « حبيبا » الذي برغم شجاعته لم يستطع أن يظفر بالمنزلة التي ظفر بها سلفه في قلوب الهنود .

ومما هو جدير بالذكر أن الخليفة كان قد أهمل في تلك الأثناء شؤون أسبانيا إهمالا تاما ، فلم يلبث الجيش أن انتخب « أيوب بن حبيب » ابن أخي موسى حاكما عليهم ، غير أن هذا التعيين لم ينل رضاه حاكم أفريقيا الذي كانت أسبانيا تعتبر جزءاً من إمارته . وما أن ولي « أيوب » زمام الحكم بضعة أشهر - نقل

(١) يقول ابن الأثير : « إن السبب في مقتله هو الأثر السيء الذي أحدثته إهنياده لايولونا (زوجه) ومبالفته في الأبهة والاحتجاج عن الرعية والتشبه بملوك القوطيين .

(المغرب)

(٢) يقول البلاذري : « إن الهنود بكوا محمداً لسماحته وعدله وكرم خلقه . وقد رئاه

حمزة بن بيض الحنفي » بقوله :

إن الرواة والسماحة والنسدي لمحمد بن القاسم بن محمد

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة يا قرب ذلك سؤددا في مولد

وقد قضى محمد وهو يتمثل بهذا البيت :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد تفر

(المغرب)

في خلالها مركز الحكم من «سينيل» إلى «قرطبة» - حتى عزله «عبد العزيز» وولى مكانه أحد المضربين المسمى «الحر». ويقال إنه غشى الأندلس في أربعمائة من خاصة الأسر العربية الشهيرة في أفريقيا ، فأصبح هؤلاء فيما بعد نواة طبقة الأشراف المسلمين في أسبانيا . ومنذ ذلك الحين حتى بدء عهد الدولة العباسية ظلت أسبانيا يحكمها بالتتابع ولاية يعينهم تارة أمير المؤمنين في الشام ، وطورا أمير أفريقيا الذي كان مقره القيروان . ولكن هذه السلطة الموزعة أضعفت الإدارة ، وأوهنت سياسة الحكم وبثت عدم الاستقرار ، كما حالت دون تعزيز المعامل النائية . أما «الحر» فلم يبق في دست الحكم غير ثلاث سنوات قام في خلالها بفتوحات واسعة في الشمال .

الفتوح في بلاد
الروم

وفي تلك الأثناء بينما كان سليمان مقيا في قصره المسمى «دابق» بالقرب من جلكيس القديمة عام ٩٨ هـ ، وفد عليه «ليون» الملقب «بأيساريان» قائد القوات الرومانية في آسيا الصغرى ، وأخذ يحرضه على فتح القسطنطينية مبيئاه المزايا التي قد تجنيها الإمبراطورية العربية من هذا الفتح ، كما أخبره باستمداده إلى إرشاد جيش المسلمين إلى مواطن الضعف في جيش الروم ، فبهرت تلك الأمانى البراقة والوعود الخلابة أبصار الخليفة ، وراح يمني نفسه بالاستيلاء على أسبانيا جديدة ، وفي الحال أرسل «مسلة» على رأس جيش كبير عبر به الدردنيل دون مقاومة تذكر ؛ كذلك أرسل أحد أبنائه على رأس جيش آخر إلى ترانس لاحتلال عاصمتها المعروفة باسم «سكاليبات» أو مدينة «السلاف» .

وعلى أثر هذا الزحف عرض الروم على «مسلة» مبلغا كبيرا من المال مقابل رفع الحصار ، ولكنه رفض طلبهم رفضا باتا مما حملهم على التفاوض مع مواطنهم الخائن والنزول على طلبه ، فمزولوا «ثيودوتوس» الثاني حاكم القسطنطينية ، ونادوا به إمبراطورا على عرش الدولة البيزنطية . ولما كان ليون يعرف مواطن الضعف في جيش المسلمين فقد استطاع أن يرشد الروم عليها ؛ وقد قيل في رواية أخرى

إنه أتلّف قسماً كبيراً من عتادهم قبل أن يفر إلى الروم . وهكذا لاقى المسلمون وأسطولهم على يديه أشد الأهوال ، وتفشت فيهم الأمراض ، وهاجمتهم الثلوج والمجاعة بأنيابها الضروس ؛ ولكنهم بالرغم من كل ذلك أصروا على مواصلة الحصار دون أن يفكروا في الانسحاب إلا بأمر الخليفة .

وليس ثمة ما يبرهن على ضعف « سليمان » وعدم جدارته بملء المنصب العظيم الذي كان يشغله أخوه « الوليد » بكفاءة تامة بأكثر من الموقف المحجل الذي وقفه إزاء « مسلمة » وجيشه . ولو أنه ساعد هذا الجيش الباسل وسارع إلى تعزيزه بالنجادات لأخضع المسلمون القسطنطينية من غير عناء .

ومهما يكن من شيء فإن تلك المصائب التي حلت بمجيش المسلمين ، لم هي أعظم من أن يقلل من هولها ذلك النجاح الذي أحرزه يزيد بن المهلب في طبرستان وكوهستان ، الواقعتين في الجنوب الغربي من بحر قزوين ، والتين كان يحكمهما حكام وطنيون ، طالما تحدوا سلطان العرب ، واعتصموا بمعاقلهم المنيعة . وأخيراً وبمسد فوات الفرصة هب « سليمان » من غفلته ، وقاد جيشاً آخر بنفسه ولكنه لم يكد يبتعد عن « دابق » في منطقة « قنسرين » وهي البقعة التي رأى فيها الخائن ليون لأول مرة — حتى أصيب بمرض شديد توفي على أثره في يوم الجمعة لعشر بقين من صفر عام ٩٩ هـ بعد حكم قصير غير لامع لم يدم إلا سنتين وخمسة أشهر . وكان « سليمان » مثله مثل أخيه ، يتوق إلى إسناد ولاية العهد لأحد أبنائه ، غير أن ابنه الأكبر الذي رشحه للخلافة كان قد توفي ، بينما كان الابن الثاني داود على رأس الحملة المنكودة الطالع التي سارت لقتال الروم ، ولم يكن محققاً وقتئذ هل قضى نحبه أو لا يزال على قيد الحياة . فاستولت على سليمان عوامل القلق ، ولأجل أن يحول دون وقوع الانشقاق الذي كان يحدث عادة في مثل هذه الأحوال كتب وصيته عند ما حضرته الوفاة بتولية ابن عمه « عمر » ثم أخيه « يزيد بن عبد الملك » .

وفاة سليمان
في أيلول سنة
٧١٧ م

كتب الخليفة هذين الاسمين على رقعة ختمها بختمه وسلها إلى رجاء بن أيوب أحد مستشاريه الأوفياء ؛ فبايع أهل بيت الخليفة « مَنْ وَلى مِنْ غير أن يعلموا مَنْ سماه » . وكانت أخلاق « سليمان »^(١) مجموعة من المتناقضات ؛ فكان سخيا مع أصحابه ، قاسياً كأبيه على أعدائه ، مغرماً باللهو والسرور ، غير أنه كان يسمو إلى أقصى درجات النشاط والهمة ، فيما إذا تازمت الأمور ؛ وقد أكسبه فك سراح المسجونين حب الشعب فسموه « مفتاح الخير » .

عمر الثاني

بويع عمر الثاني الملقب « بالخليفة الصالح » لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين هجرية . وهو ابن عبد العزيز « أخى عبد الملك » الذى كان قد ولى على مصر فساسها بالحكمة والعدل . أما أمه فهي حفيدة « عمر بن الخطاب » ويمتبره أهل السنة خامس الخلفاء الراشدين ؛ وكان من أبرز صفاته النسك والتواضع وحب العدل والاستقامة ؛ وكان فوق ذلك متقشفاً فى ملبسه ، غير مترف فى معيشته ، فساوره القلق على أمور المسلمين ، وعظمت عليه مسؤولية الخلافة . ويقال إن زوجه رآته ذات مرة بعد الصلاة يبكي ، فسألته عما يبكيه ، فقال : « لقد وليت أمور المسلمين وغير المسلمين ، فتذكرت الفقراء الذين يتضورون جوعاً ، والمرضى المحرومين والمعوزين المضطهدين ، والمسجونين البائسين والشيوخ المهيضى الجناح ، نخشيت أن يحاسبني الله من أجلهم حساباً عسيراً ، ولهذا بكيت » .

ولقد استفتح ولايته ببيع خيول سليمان وردّ ثمنها إلى بيت المال ، كما أمر زوجه أن تعيد ما وهبها أبوها من ثياب موشاة وجواهر نفيسة إلى خزينة المسلمين فصعدت بأمره مغتبطة مسرورة .

ويقال إن يزيد عرض عليها بعد وفاة زوجها أن يرد إليها مجوهراتها

(١) يقول السعدي : إنه كان صاحب أكل كثير يجوز القدار ، وكان يلبس الثياب الرقاق وثياب الوشى . (المغرب)

وملابسها ، فرفضت ذلك قائلة إنها لم تهتم بها في حياتها ، فحقيق بها الاتهم بها في مماته ؛ كذلك أعاد « عمر » إلى المسيحيين واليهود كنفائسهم ومعابدهم التي سبق أن اغتصبت منهم ، كما رد إلى آل البيت أرض « فدك » التي كانت بيد رسول الله (ص) ثم استولى عليها « مروان » . وكان من المعتاد في حكم الأمويين إلى ما قبل عهده الإساءة إلى ذكرى « على » وأهله ، فأمر عمر بترك هذه العادة وجعل مكانها « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم »^(١) . ويقال إنه حض الناس على التمسك بمكارم الأخلاق ، وأنزل العقاب بكل معتد أثم ، ورفع الأعباء التي كان الحجاج وأصحابه قد فرضوها على كواهل المسلمين في العراق وخراسان والسند . ويعتبر عهد « عمر الثاني » على الجملة أحسن عهود الدولة الأموية ، ويشيد المؤرخون دائماً بذكر الأعمال الجليلة التي قام بها هذا الخليفة المحب للرعية والمتفاني في خيرها وإسعادها .

وفي غضون حكمه أمسك الخوارج عن حركاتهم الهدامة في بلاد العرب وأفريقيا ؛ وبعثوا وفداً منهم إلى عمر يقول له بأنهم لا ينعمون عليه سيرته لأنه يحكم الناس بالعدل والإحسان ، ولكنهم لا يوافقون على مبايعة يزيد بولاية العهد لاستهتاره وتبذله . ولم يكن « عمر » يشجع التوسع في الفتوحات بل كان يصرف همه إلى تدعيم أركان الدولة ، فاستقدم مسلمة من حصار القسطنطينية وأوقف زحف الجيوش الأخرى ، وشجع الناس على مزاولة الحرف ، وحاسب عماله حساباً عسيراً . وكان يعتقد أن « يزيد بن المهلب » حاكماً مستبداً ، بينما كان يزيد يلعبه بالمنافق . وأراد « عمر » أن يحاسبه ذات مرة عن الأموال التي كتب بها إلى

(١) وقيل جعل مكان ذلك : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » (الآية) . وقيل بل جعلها جميعاً . (المرب)

الخليفة السابق ، ولما لم يقدم له جواباً شافياً حبسه بمحمن حلب وظل في سجنه حتى قبيل وفاة عمر .

ومما يؤثر عن هذا الخليفة أنه كتب إلى والى الكوفة كتاباً يحض فيه العزل على إبطال جميع القوانين الجائرة ، وإزالة أسباب الشكوى ؛ وفيما يلي نبذة من كتابه : « إن قوام الدين العدل والإحسان فلا تستصغروا أمي إنمهما قل شأنه ولا تحاولوا تخريب البلاد العامرة ، ولا تفرضوا الضرائب الفادحة على الرعية ، وخذوا منهم ما طاعوا ، وافعلوا كل ما من شأنه أن يعمر البلاد ويزيد في رفاهية العباد ، واكفوا الشعب باللين والرفق ، ولا تقبلوا هدايا المواسم والأعياد ، ولا ثمن المصاحف التي يجب أن توزع مجاناً ؛ ولا تفرضوا الضرائب على المسافرين ولا على النكاح ، ولا الخراج على من أسلم من أهل الذمة » .

وكان ابنه — ولم يكن قد جاوز بعد السابعة عشر — يحمل في سويدائه كأبيه رغبة ملححة في إسعاد المسلمين ، فسأله ذات مرة لماذا لا يجتث الشر من قلوب المسلمين ، فأجابه بقوله : « إن ما تتمناه يا بني لا يدرك إلا بجد السيف وحده ، ولكن لا خير في إصلاح لا يتم إلا بالقوة » !

تولية السمح
على الأندلس

وفي سنة ٧١٩ م عند ما انتهى إلى مسامعه خبر الاضطرابات الداخلية في أسبانيا وتأكد من عجز « الحر » عن إدارة شؤون البلاد عزله في الحال ، وولى بدلاً منه أحد الرؤساء اليمانيين المسمى « السمح بن مالك » من عشيرة « خولان » . وكان إدارياً حازماً وعسكرياً شجاعاً ، فأعاد تنظيم الأمور المالية والإدارية ، كما أحصى — بأمر الخليفة — عدد السكان على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم ، ثم مسح بلاد الأندلس مسحاً تفصيلياً من مدن وجبال وأنهار وبحار مبيناً تربة الأرض ونوع المنتوجات ، كذلك بنى مسجداً جامعاً في سرقوسة ، وشيد عدة جسور ورمم الجسور المتداعية .

ولما فرغ « السمح » من تنظيم أمور الدولة أقدم على قمع حركة الثوار

النصارى وسكان اللاتكيدوك والبروفانس ، فانتصر عليهم وأمعن فيهم القتل حتى لاذوا بالفرار إلى معاقل الأسترياس الجبلية ، واكتسح أمامه « ستاية » وافتتح أربونة وصالحته المدن الأخرى . وقد كانت « أربونة » مكشوفة من البحر ، فعمد إلى تحصينها وتعزيز حاميتها ، ثم سار بجيشه إلى طولوز عاصمة الأكويتين وحاصرها حيناً ؛ وفيما كان يستعد للهجوم عليها بالرغم من قلة عدد جيشه — إذ كان قد ترك عدة فرق في المدن التي احتلها في طريقه — وصل أيوديس أمير اكويتانا على رأس جيش كبير لإنتقاذ المدينة من المسلمين ، فأصبحت نسبة جيش المسلمين لجيش العدو كنسبة الواحد إلى العشرة . ولما رأى القائد العربي أن جيشه أصبح بين نارين ، سار إليهم بيسالته المعهودة وكسر قواده أعماد سيوفهم إيداناً منهم بالهجوم عازمين على الانتصار أو الموت ، وهم في ذلك أشبه بحرس نابليون الذين كانوا يؤثرون الموت في ساحة الوغى على التسليم إلى الأعداء . وظل القتال سجالاتاً بين الفريقين ردحاً من الزمن حتى سقط السمح مشخناً بجراحه وقد أصابه سهم في جبهته . وما أن رأى الجنود مصرع قائدهم حتى هلمت قلوبهم وخارت قواهم ، لولا أن استولى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي بمحنته على القيادة في الحال ، واحتال في سحب الجيش من بروفانس بمهارة وشجاعة أكسبته حتى إعجاب أعدائه . وقد وقعت تلك المعركة التي هلك فيها عدد كبير من قواد العرب المشهورين في شهر إيار سنة ٧٢١ م بعد وفاة عمر بقليل .

الزحف على
فرنسا

لم يستطع الأمويون أن يتحملوا صرامة حكم عمر ولا تناهيه في الإنصاف وهالهم منه إعراضه عنهم وحرمانه إياهم مناصب الدولة ، وأحفظهم عزمه على تغيير وصية أخيه بولاية العهد ، فعمدوا النية على استخدام وسيلتهم المعهودة في إزاحة مفخرة أسرته من سبيلهم ، ورشوا أحد الخدام ليدس له السم في الطعام ، فكان

لم ما أرادوا وقضى نهبه مسموماً في دير سمعان على مقربة من حمص في أواسط سنة ١٠١ هجرية .

استخلاف
يزيد الثاني

صارت الخلافة إلى « يزيد الثاني بن عبد الملك » بتمتضي وصية « سليمان » أخيه ، وكان « يزيد » متزوجاً ببنت أخي الحجاج ، ولهذا كان يتعصب للمصريين على الحيريين بعد أن كان عمر يحافظ على التوازن بين هاتين القبيلتين .

وفي زمن يزيد راحت مضر تسوم منافستها الاضطهاد ، الذي يعزى معظمه إلى السياسة الصارمة التي عامل بها يزيد بن المهلب أسرة الحجاج في عهد سليمان بقصد محاسبتها على الأموال التي ظن أن الحجاج قد ابتزها من الناس . ولم ينج أحد من اضطهاده حتى ابنة أخي الحجاج زوج يزيد الذي أقسم بعد أن فشلت وساطته ليزقن ابن المهلب متى أفضت إليه الخلافة ، فتحدهاه ابن المهلب بقوله : « إنك إن فعلت قابلتك بمائة ألف مقاتل » . ولما علم ابن المهلب وهو في سجنه بدنو أجل عمر بن عبد العزيز رشا الحارس وفر من السجن مخافة أن يفتك به سميه الأموي ، وصار إلى العراق رافعاً علم الثورة حتى غشى البصرة حيث كان يعيش الإمام الحسن البصري رئيس المدرسة الفقهية ، الذي أهاب بمواطنيه ألا ينحازوا إلى أحد الطرفين ؛ ولكن شجاعة ابن المهلب وأخيه وكرهما - وهما خصلتان تؤثران على العقل العربي - أشعلتا أهل البصرة حماساً فأنحازوا إلى الأخوين ، وبذلك قويت شكيمتهما . ولكن يزيد الأموي لم يلبث أن أرسل مسلمة بن عبد الملك ، وعباس بن الوليد ، في جيش عظيم لقمع فتنة الثائرين .

التقى الجيشان في ميدان « المقر »^(١) على شاطئ الفرات الأيمن ، واقتل قتلاً شديداً حتى دارت الدائرة على الثائرين . وقتل يزيد وأخوه حبيب وفر أصحابه الباقيون إلى كرمان . ونشبت بينهم وبين جيوش الخليفة معركة أخرى

(١) هي عفر بابل قرب كربلاء من الكوفة ، وقد وقعت الحادثة سنة ١٠٢ هـ ، ويوجد عدة قرى بهذا الاسم في العراق (معجم البلدان ج ٦ ص ١٩٤ - ١٩٥) .
(المرب)

أسفرت عن قتل بعضهم والتجاء البعض الآخر إلى خاقان الترك . وكانت لثورة يزيد بن المهلب التي كادت تقوض أركان الخلافة الأموية نتائج بعيدة الأثر برغم قمعها ؛ كما أن استئصال شأفة « أزد » اليمانية التي ينتسب إليها يزيد بن المهلب « في المارك التي دارت رحاها في الكرمان والمراق » فت في ساعد الدولة العربية وأهلب نار العصبية بين اليمانيين والحيريين في أسبانيا وأفريقيا والمشرق .
وفي تلك الأثناء انتصر أعداء المسلمين في كل مكان ، وأعان عجز الخلفاء وضعف بطاتهم واستعمال الحكام الجهلاء على نشوب الفتن الداخلية ؛ فنيت الحملة العسكرية العربية في بلاد أذربيجان بهزيمة منكرة ، بعد أن اشتبكت في القتال مع الخزر والقفجاق سكان قوقاسية ؛ ونشبت الثورات فيما وراء النهر بسبب تعسف الولاة واستبدادهم ؛ كذلك لا نعلم عن أى نجاح أحرزته جيوش العرب في ذلك الحين ، سوى في آسيا الصغرى في المارك التي نشبت بينها وبين الجيش البيزنطى .

أما في أفريقيا فقد حاول أحد عمال الحجاج السابقين أن يعامل أهلها — البربر — بالشدة معاملة الحجاج لأهل العراق فثاروا عليه ، واستفحل أمر الفتنة حتى استنفدت مصادر الإمبراطورية في عهد خلف يزيد . ولم يكن الحال في الأقطار الأخرى بأحسن منه في أسبانيا بعد أن ساد الأمن في ربوع البلاد في عهد عمر بن عبد العزيز ، وحفظ التوازن بين الحيريين والمصريين ، فلم يحدث في عهده ما يدعو إلى الشكوى . غير أن نار العصبية القبلية استعرت من جديد بعد وفاته فانقرمت المدن في منازعاتها وخصوماتها ، وراح العمال يفرضون الضرائب الباهظة التي كان أخو الحجاج قد فرضها في اليمن في عهد الوليد الأول وألقاها عمر الثانى . ويمكننا القول بأن هذا الإرهاق قد أدى إلى هجرة معظم السكان ، فألغيت القوانين العادلة التي سنها عمر ، وخرج الخوارج من مكانهم يفتكون بالظلمة المستبدين بعد أن كانوا قد توقفوا ردها من الزمن عن أعمال

العنف والاعتقال . وفيما كانت الإمبراطورية تعصف بها ريح الاضطرابات من كل حذب وصوب ، وتقع فيها هذه الحوادث ، كان « يزيد » يتبادل الحب ويرتشف كؤوسه المترعة مع سلامة وحبابة جاريتيه الفتاتين^(١) ربتى الحسن والبهاء ؛ ولكن المنية عاجلت حبابة ، فلم يلبث أن أرمضه الحزن وأضناه الأذى حتى لحق بها بعد قليل ؛ وعندئذ تنفس بنو أمية الصعداء . والحسنة الوحيدة التي يمكن أن تسجل ليزيد هي أنه أنقذ « فاطمة بنت الحسين » (شهيد كربلاء) من تمسف عامل على شاكلة الحجاج كان قد طلب أن يتزوجها ، ولما أبت النزول على طلبه هدها ، فكتبت إلى « يزيد » فزله في الحال وأنزل به أقصى أنواع العقاب .

وفي تلك الأثناء بدأت الدعوة العباسية تنتشر في المشرق ، كما ظهر دعواتها الدعوة العباسية لأول مرة في خراسان على هيئة تجار أبرياء . ولما تنامى خبرهم إلى مسامع « سعيد »^(٢) عامل بنو أمية سألهم عن صحة دعوتهم ، فدافعوا عن أنفسهم دفاعاً بارعاً حتى أخلى سبيلهم . بيد أن الولاة الذين جاءوا بعده لم يكونوا يمثل بساطته وتساهله فلم يقتنعوا بأقوالهم وشرعوا يشددون عليهم التكبير . وبما يلاحظ أن هؤلاء الدعاة مع ما كان ينتظرهم من قتل وتشريد — لو اكتشفت مؤامرتهم — راحوا يثبون الدعوة بنشاط منقطع النظير ؛ وبالرغم من جميع المحاولات التي اتخذها العمال في إحباط مساعيهم وسحق حركتهم ، ظلت دعوتهم تنتشر في الخفاء ، وشرع الناس يعتقدونها بحماس مفرط ، فلم تمض مدة وحيزة حتى امتلأت بلاد الفرس بالجمعيات السرية المتفانية في تعويض دعائم الدولة الأموية ، وتضافرت عوامل شتى في ذلك الحين على توسيع نطاق المؤامرة وإضرام نار الثورة التي اشتعلت فيما بعد كما تشتعل النار في المهشم ، واكتنفت البيت

(١) جاء في كتاب الأغاني : « إنهما كانتا أديبتين ترويان الأشعار وتضريان على العود

وكان الناس في الحجاز تتناقل آياتهما في الأندية الخاصة والعامّة . (المرب)

(٢) لقب خزينة إذ أنه اعتاد ارتداء ملابس النساء الفارسيات .

الأموي بلهيبها المستمر حتى تقوضت دعائه . ويلاحظ المؤرخون أنه ما كادت إصلاحات « عمر » وعدالته تمحو من أذهان الناس مظالم الحجاج وعسفه حتى أعتلى يزيد عرش الخلافة ، فأثارت أعماله الوحشية وتنكيله بأسرة سميه الثائر « يزيد بن المهلب » كمين الأحقاد في قلوب اليمانيين ، ولا ننسى أن ثمة سبباً آخر أكثر شأنًا وأعظم خطراً أعان على تمهيد السبيل للعباسيين ، وهو أن المسلمين كانوا يتوقون إلى أن يسترد آل البيت حقوقهم المسلوبة ، وهذه الرغبة الملحة أزكتها تصرفات « يزيد » وسوء حكمه ؛ كذلك كان الشعب في هذه الغورة يتطلع متلهفًا إلى إشارة الأئمة القاضية بإعلان الثورة ، ولكن يلوح أن هؤلاء العلماء الأتقياء كانوا قد نبذوا الحياة العملية جانباً ، وبعادوا بين أنفسهم وبين العالم الدنيوي . وفي خضم هذا القلق المضى الذي استحوذ على البلاد ظهر بنو العباس يروجون لفضيلتهم ويبشون دعوتهم بين الناس .

بنو العباس

ينتسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد توفي سنة ٣٢ هـ ، وله أربعة بنين وهم : عبد الله ، والفضل ، وعبيد الله ، والقيسان . ويعرف عبد الله في التاريخ باسم « ابن العباس » ، ولد في مكة سنة ٦١٩ م أي قبل الهجرة بثلاث سنوات ، واشترك الأبناء الأربعة في يوم الجمل وموقعة صفين . وكان ابن العباس فقيهاً عالماً وجندياً شجاعاً ، كما قاد بنفسه فرقة الفرسان في الحروب تحت لواء علي بن أبي طالب الذي أراد أن يكبل إليه أمر التحكيم بدلاً من أبي موسى الأشعري حينما أجبرته جنوده المتمردة على قبول اقتراح « معاوية » .

وقد توفي ابن العباس في الطائف سنة ٧٦ هـ وعمره ٧٠ سنة ، فحذا ابنه سمى الخليفة العظيم حذو أبيه في حبه وإخلاصه لأولاد « فاطمة الزهراء » . ولما توفي سنة ١١٧ هـ انتقلت زعامة الأسرة لابنه « محمد » ، وكان رجلاً على جانب عظيم من الدهاء السياسي والنشاط وطموح النفس ، وهو أول من فكر في طلب البيعة لنفسه .

الدعوة لبي
العباس

أخذ محمد بيث فكرة جديدة كي يبرر بها دعوته للخلافة ، وهي أن زعامة الإسلام الروحية بعد مقتل الحسين في كربلاء لم تنتقل إلى علي بن الحسين (زين العابدين) ، إنما انتقلت إلى محمد بن الحنفية الذي أوصى إلى ابنه أبي هاشم ، وهذا أوصى بدوره إلى محمد بن علي بن عبد الله ، فراجت هذه الإشاعة في بعض البلاد ، كما طفق دعاة العباسيين يؤكدون للعامة أنهم إنما يثبون الدعوة لأحفاد الرسول ؛ وقد بلغ من ثقة متشيبي آل البيت بهؤلاء الدعاة أن شملوم برعاتيتهم دون توخي موافقة أئمتهم ، وبذلك نال محمد بن علي وأصحابه مؤازرة حزب قوى شديد الخطر ساعدهم على صبغ دعوتهم بالصبغة الشرعية التي كانوا في أشد الحاجة إليها . ولما حضرته الوفاة سنة ١٢٥ هـ أوصى لأولاده إبراهيم ، وعبد الله أبي العباس (الملقب بالسفاح) ، وعبد الله بن جعفر (الملقب بالمنصور) ، بالتعاقب فقاموا بالدعوة بنفس الإخلاص والهمة والنشاط .



منظر دمشق من جهة النهر